مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد(19) – العدد (39) (ديسمبر، 2018) ص 213- 226
ISSN 1111-5149 /E.ISSN 2430-2588

إنجازية الفعل الكلامي في كتاب"الأذكياء" لابن الجوزي

-مقاربة تداولية-

نبيلة بوقرة[1] **جامعة العربي التبسي،** nabilabouguerra22@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2018-09-08 **تاريخ القبول: 2018-12-17**

ملخص

تبحث هذه الدراسة في نظرية الأفعال الكلامية التي شكّلت منعطفا مهمّا في مجال الدراسات اللسانية وكانت النواة المركزية لكل البحوث التداولية، وقد قامت على فكرة أساسها أنّ اللغة ليست للتواصل وحسب وإنّما هي مؤسسة تتكفّل بإحداث تغيير في الواقع وإنجاز أفعال بما يلفظ من قول، وقد اخترنا لتطبيق هذه النظرية في ظل المنهج التداولي مدونة تراثية، وهي نماذج من الحوارات الواردة في كتاب "الأذكياء" لابن الجوزي، وذلك للوقوف على الأفعال الكلامية التي ينتجها المتكلم.

وقد أتاحت لنا هذه المنتخبات تقصي هذه الظاهرة، ومعرفة الأثر الذي تركته في المتلقي وظهر في التغيير الذي حدث على أرض الواقع.

الكلمات المفاتيح: الفعل اللغوي، التداولية، السياق.

Abstract:

This study investigates in the speech act theory that made a crucial inflection point in linguistics, being the central nucleus for all the researches in pragmatics. The study is based on the idea that consists of language being not just the mean of communications but a whole institution that ensures change in reality, making accomplishment of acts upon the words spoken. And in order to put the theory into application, considering the pragmaticmethod, we have chosen a traditional text; ibn el-jawzi's "the clever ones", which allowed us to stand on the completion of the acts of speech produced by the person speaking and what is it has of impact on the receivers, and the change that appears in reality.

Key words: Act of language, pragmatics, context.

[1] نبيلة بوقرة جامعة العربي التبسي-تبسة -الجزائرnabilabouguerra22@gmail.com

مقدمة:

تجاوزت التداولية عتبة الدراسة الشكلية للغة إلى دراستها في الاستعمال، أي دراسة الحدث الكلامي مجسّدا في الواقع، معيدة بذلك الاعتبار للسياق الذي أبعدته النظريات السابقة، وهذا يقتضي الاهتمام بالعملية التواصلية وكافة عناصرها، للوصول إلى معرفة القواعد الكلّية التي تمكّن مستعملي اللغة من إنتاج وتأويل الملفوظات في سياقات مختلفة.

ومن النظريات التداولية التي لاقت اهتماما كبيرا في الدراسات اللسانية، نظرية الأفعال الكلامية، التي أسفرت عنها جهود ثلة من فلاسفة اللغة، ومنهم أوستين وتلميذه سيرل وبول غرايس، اللذين نظروا إلى اللغة باعتبارها مؤسسة اجتماعية يمكن من خلالها تغيير الواقع بما ينتجه المتكلم من قول، ويتجاوز به المعنى حدود الحرف والمعجم.

وتعدّ الخطابات المبنية على الحوار موضوعا خصبا للتحليل التداولي كونه يقدّم نماذج وإجابات شافية للأسئلة الّتي تطرحها التداولية من قبيل: من يتكلّم؟ من يخاطِب؟ ماذا يقصد؟ ولذلك اخترنا لهذه الدراسة نصا تراثيا تميّز بطابعه الحواري، تنوّعت فيه المقامات وتعدّد فيه المتحاورون، بشكل يتيح لنا البحث فيما يحيط بهم من سياقات اجتماعية وثقافية ونفسية ولسانية، للإجابة عن إشكال رئيس وهو: كيف يمكن للمتكلم إنجاز أفعال تؤدي إلى تغيير الواقع بالكلمات وحدها؟

ومن هذا المنطلق تظهر أهمية هذه الدراسة التي سنسعى فيها للبحث عن الآليات التي يستعملها الناس في خطاباتهم اليومية وما يبدونه من تعاون، حتى يقولوا ما يُفهم ويفهموا ما قيل وما لم يقل.

1-مفهوم التداولية:

التداولية مصطلح عربي وُضع مقابلا للمصطلح الأجنبي(Pragmatique) وهو أحد أهم المفاهيم التي حظيت باهتمام الدارسين في أواخر القرن الماضي، ويعود أصله إلى الجذر اللاتيني (Pragma) الذي يعني الفعل أو الحدث، أمّا معناه في اللغة الفرنسية فمرتبط بما هو محسوس وملائم للحقيقة، ويدل في اللغة الإنجليزية (Pragmatic) على ما له علاقة بالأفعال والوقائع الحقيقية(بلانشيه، 2007، ص17).

أما في اللغة العربية فقد ورد في مقاييس اللغة في مادة (دول) أن دول تدل على تحول الشيء من مكان إلى مكان، فيقال اندال القوم، إذا تحولوا من مكان إلى مكان (ابن فارس، 1979، ص314).

وفي لسان العرب الدُّولة فعل الانتقال من حال إلى حال، فيقال تداولنا الأمر أخذناه بالدول وتداولته الأيدي أخذته هذه مرة وهذه مرة، ودالت الأيام أي دارت واللّه يداولها بين الناس (ابن منظور، دت ، ص1456).

فدلّ بذلك التداول على التحول من حال إلى أخرى والانتقال من مكان إلى آخر، وكذلك اللغة في تحولها وتنقلها بين مستعمليها.

وهو ما شجّع طه عبد الرحمان على اختيار "التداولية" ترجمة لمصطلح (Pragmatique) لدلالته على التواصل لجريان الكلام المنطوق على الألسن وعلى

التفاعل لكونه موصولا بالفعل (عبدالرحمان، 1993، ص244)، حيث عبّر عن ذلك في كتابه في أصول الحوار وتجديد الكلام بقوله: «وقد وقع اختيارنا منذ1970 على مصطلح "التداوليات" مقابلا للمصطلح الغربي "براغماتيقا"، لأنّه يوفّي المطلوب حقّه، باعتبار دلالته على معنيي الاستعمال والتفاعل معا» (عبدالرحمان، 2000، ص24).

وتُرجع أغلب الدراسات أول استعمال لهذا المصطلح إلى الفيلسوف الأمريكي (Charles Morris) حين وظّفه عام 1938م في كتابه "أسس نظرية العلامات" للدلالة على جزء من السيمياء وأحد مكوناتها الثلاثة، فعرّف التداولية بأنها دراسة العلاقة بين العلامات ومستعمليها (بوجادي، 2010، ص55)، فكانت البعد الاستعمالي(التداولي) للغة إلى جانب البعدين الدلالي والتركيبي، وهو تعريف تجاوز به الحدود اللسانية في دراسة اللغة وأضاف لها العنصر التفاعلي الذي يقوم على دراسة اللغة في الاستعمال.

وعلى الرغم من الأشواط الكبيرة التي قطعها هذا العلم والمجالات المتعددة التي طرقها، فلا يزال العديد من الدارسين يقرّون بعدم وضوح معالم التداولية: «فهي درس جديد وغزير إلاّ أنه لا يملك حدودا واضحة... تقع التداولية كأكثر الدروس الحيوية في مفترق طرق الأبحاث الفلسفية واللسانية» (أرمينكو، 1986، ص7)، فتعددت تعريفاتها بتعدد مجالات بحث دارسيها واهتماماتهم.

ومن هؤلاء الباحثين: آن ماري دييرA.M Dire) وفرانسواز ريكاناتي (F.Ricanati) فقد عرّفا التداولية على أنّها: «دراسة استعمال اللغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية»(بوقرة، 2012، ص72)، وعرّفها فرنسيس جاك(Francis Jacques) بقوله: «تتطرّق التداولية إلى اللغة في أبعادها الخطابية والتواصلية والاجتماعية»(بوقرة، 2009، ص97)، أمّا جورج يول فيرى أنّها «دراسة الفعل الإنساني القصدي، فهي تنطوي على تفسير أفعال يفترض القيام بها لإنجاز غرض معيّن وبناء على هذا ينبغي على المفاهيم المركزية في التداولية ان تتضمّن اعتقادا وقصدا وخطة وفعلا»(يول، 2010، ص137) أي أنّ مستعمل اللغة له أفكار ومعنى مقصود يسعى إلى إيصاله ويبني لذلك استراتيجية تبلّغه هدفه فيظهر قصده في الفعل الذي ينجزه في الواقع.

وقد أجمع الباحثون على صعوبة وضع تعريف واحد جامع وشامل للتداولية، ذلك لأنّها «ليست علما لغويا محضا يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، لكنها علم جديد للتواصل، يدرس اللغة في مجال الاستعمال ويدمج من ثم مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره»(صحراوي، 2005، ص16)، إلاّ أنهم أجمعوا على أنّها «علم الاستعمال اللغوي»(علوي، 2011، ص3).

وبهذا تكون التداولية قد تجاوزت حدود البنى الشكلية التي اهتمت بها البنيوية، وجعلت من السياق دعامة قوية للكشف عن المعنى الذي يقصده المتكلم ويفهمه السامع، بانخراطهما في لعبة اللغة التي لا تكتفي بالقواعد الشكلية للبوح بأسرارها، وتستدعي الملكة التواصلية التي لا تتحدّد إلاّ داخل المؤسّسة الاجتماعية

متحقّقة في كل أشكال التواصل، فكان السياق عند أكثرهم جزءا من تعريفها «تدرس التداولية العلاقة النظامية بين النص والسياق»(يول، التداولية، ص161) بعد أن أقصته اللسانيات السوسورية التي حددت دراسة اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها وسارت على طريقها كل المناهج في تبني هذا المبدأ في كل مقارباتها.

2-مبادئ التداولية ودرجاتها وأهم قضاياها:

أعادت التداولية النظر في المبادئ التي تأسست عليها الدراسات اللسانية السابقة والتي تمثلت في:

-أسبقية الاستعمال الوصفي والتمثيلي للغة.

-أسبقية النظام والبنية على الاستعمال.

-أسبقية القدرة على الإنجاز.

-أسبقية اللغة على الكلام(لحمادي، 2008، ص586).

ولقد استطاعت التداولية في فترة وجيزة أن توسّع مجالات بحثها في تقصّي الظاهرة اللغوية، حتى غدت كل قضية من قضاياها نظرية قائمة بذاتها، لكنها تلتقي جميعها عند «دراسة كيفية استعمال الناطقين للغة في حالات الخطاب الملموسة»(المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1989، ص111)،أي البحث عن القوانين التي تحكم الاستعمال اللغة، ويعتبر الهولندي هانسون(Hanson) أوّل من حاول التوحيد بين مختلف نظريات التداولية بتقديمه سنة 1974م تصوّرا متميزا لأجزائها وفق درجة تعقد السياق(بوجادي، 2010، ص64)الذي يُعرّف على أنّه: «مجمل الظروف الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقة بين السلوك الاجتماعي والاستعمال اللساني...وهي المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقي والوضعية الثقافية والنفسية والتجارب والمعارف الشائعة بينهما على حد سواء»(Jean Dubois et des autres, 1994, p116)،وقد قسمها هانسون إلى ثلاث درجات:

أ-تداولية الدرجة الأولى: هي دراسة للرموز الإشارية (المبهمات) ضمن ظروف استعمالها أي في سياقها الوجودي، ويشمل المتخاطبين ومعطيات الزمان والمكان.

ب-تداولية الدرجة الثانية: تتمثل في دراسة الطريقة التي يعبّر بها عن القضايا ومدى نجاح المتكلم في ذلك أو إخفاقه، وسياقها في هذه الحال يمتد إلى نفسية المتخاطبين وحدسهم والاعتقادات المشتركة بينهم، فتدرس من خلال ذلك كيفية انتقال الدلالة من الصريح إلى الضمني، ومن أهم نظرياتها: متضمنات القول، المحادثة، وقوانين الخطاب.

جـ-تداولية الدرجة الثالثة: وتتمثل في نظرية أفعال الكلام التي قدّمها أوستن (Austin) وطوّرها سورل(Searle)، ومفادها أن الملفوظات لا تصف حالة بل تنجز فعلا لا يتحدّد إلاّ من خلال السياق، الذي يميّز بين الأمر والنهي والجد والدعابة وغيرها من المقاصد(أرمينكو، 1986، ص38). ونلاحظ من خلال هذا التقسيم أنّ توظيف السياق يختلف من درجة إلى أخرى.

3-**مفهوم الفعل الكلامي** (acte de parole):

هو أحد المفاهيم الأساسة في اللسانيات التداولية، ويدعى أيضا فعل الخطاب (acte de discours) والمقصود به الوحدة الصغرى التي بفضلها تحقق اللغة فعلا بعينه كالأمر والطلب وغايته تغيير حال المتخاطبين(مونغونو، 2008، ص7)، ويرجع الفضل في بعث هذا المصطلح والتنظير له إلى فيلسوف اللغة العادية أوستين (Austin) 1970م حيث ميّز في بداية بحثه بين الأفعال الإخبارية (Constative) التي تصف وقائع العالم الخارجي، ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، والأفعال الأدائية (Performative) التي تنجز بها أفعال لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب كالاستفهام والنصح والوعد(نحلة، 2002، ص43)، ولاحظ بأن هذا التمييز لا يحسم الأمر بالنسبة لكل الجمل، واللغة لا تكتفي بوصف الواقع وحسب وإنما تساهم في تغييره، فهي مؤسّسة تتكفل بتحويل الأقوال التي تصدر في سياقات معينة إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية(بلخير، 2003، ص155)، وهو ما يعبّر عنه بالفعل الكلامي، ويقصد به أنّ «كل ملفوظ ينهض بنظام شكلي دلالي تأثيري»(صحراوي، 2005 ، ص40)، فهو نشاط مادي يقوم به المتكلم لتحقيق أغراض متنوعة كالطلب والوعد ووسيلته في ذلك اللغة.

وقد ميز أوستين في الفعل الكلامي بين مكونات ثلاثة:

-فعل القول: (acte locutoire) ويراد به إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة، ففعل القول يشتمل بالضرورة على المستويات اللسانية المعهودة (مستوى صوتي دلالي، تركيبي).

-الفعل المتضمن في القول(الإنجازي)(Acte illocutoire): وهو الفعل الإنجازي الحقيقي وهو عمل ينجز بقول ما، وهو المقصود بالنظرية برمتها (الإنجازية) وقد اقترح أوستين تسمية الوظائف اللسانية الثاوية خلف هذه الأفعال بالقوى الإنجازية(صحراوي، 2005 ، ص41).

-الفعل الناتج عن القول (Acte perlocutoire): وهو الفعل التأثيري ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في المتلقي(نحلة، 2002، ص46).

ولتوضيح ذلك ننظر في الحوار الذي ورد في كتاب الأذكياء لابن الجوزي[1]: «وقف المهدي على عجوز من العرب فقال لها: ممن أنت؟ فقالت: من طيء، فقال: ما

[1]- هو جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمد، ابن الجوزي، يرجع نسبه إلى محمد بن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) فقيه حنبلي محدث ومؤرخ ومتكلم، توفي ببغداد في الثاني عشر من رمضان عام 597هـ. ينظر: ابن خلكان، شمس الدين أحمد ، (1972)، *وفيات الأعيان أنباء أبناء الزمان*، تح إحسان عباس، ، دط، مج3، لبنان، دار صادر، ص139.

منع طيئا أن يكون فيهم آخر مثل حاتم؟ فقالت مسرعة: الذي منع الملوك أن يكون فيهم مثلك، فعجِب من سرعة جوابها وأمر لها بصلة»(ابن الجوزي، 1988، ص63).

يمكننا تمييز مكونات الفعل الكلامي الذي أنتجه المهدي كالآتي:

فعل القول: هو الأصوات المكونة للعبارة المتلفظ بها، وهو " ما منع طيئا أن يكون فيهم آخر مثل حاتم".

الفعل المتضمن في القول (الفعل الإنجازي): مفاده أنّ صفة الكرم ليست راسخة في قبيلة طيء وما حاتم إلاّ حالة شاذة فيهم، فقد جاء الفعل الكلامي في صيغة استفهامية الغرض منها الذم والاستهزاء.

الفعل التأثيري:نجم عن هذا الفعل تأثير في المستمع(العجوز) فأسرعت في الرد على المهدي للدفاع عن قبيلتها، وحولت موضوع الحديث الذي كان حاتم وقبيلته محوره، وركزت على المهدي والطبقة الراقية من المجتمع التي ينتمي إليها وهي طبقة الملوك وجعلتهما مركز الحديث فجاء ردها كالآتي:

فعل القول: الأصوات المكونة للملفوظ الذي أنتجته العجوز "الذي منع الملوك أن يكون فيهم مثلك".

الفعل الإنجازي (المتضمن في القول): وهي القوة الإنجازية للفعل الكلامي، لم تقدم العجوز إجابة لسؤال المهدي بل غيّرت موضوع الحديث وجعلت المهدي نفسه محورا له بإجرائها مقابلة بين المهدي وحاتم وقبيلة طيء ومعشر الملوك، فكانت القوة الإنجازية للفعل أنّ العيب ليس في القبيلة بل لأنّ حاتما ظاهرة لا يمكنها أن تتكرر، مثله مثل الخليفة المهدي بين الملوك.

الفعل التأثيري: هو الأثر الذي أحدثه كلام العجوز في الخليفة المهدي، وظهر في إعجابه بسرعة بديهتها وقدرتها على إدارة الكلام وجعله في صالح حاتم وطيء دون عناء او محاولة لإيجاد مميزات لهم أو البحث في مناقبهم التي لا يجهلها أحد والدليل على ذلك ذكر الخليفة لهم، وتبنّت استراتيجية هجومية محورها الخليفة نفسه وحاصرته بحيث يؤدي إنكاره حديثها إلى القدح في شخصه وفي سائر الملوك قبل حاتم وطيء.

ومما سبق نلاحظ أن أفعال الكلام التي انجزها المهدي والعجوز قد تضمّنت حمولة دلالية وإنجازية وتأثيرية، وبالتالي جمعت خصائص الفعل الكلامي الكامل التي لخصها مسعود صحراوي في أنّه: فعل دال، فعل إنجازي، فعل تأثيري ويقوم على مفهوم القصدية(صحراوي، 2005، ص44).

4-تصنيف الأفعال الكلامية:

ميّز الباحثون في القضايا التداولية بين نوعين من الأفعال الكلامية: مباشرة وغير مباشرة، وفي النوع الأول منها قدّم أوستن تصنيفا للأفعال الكلامية على أساس

قوتها الإنجازية لأن إحصاءها العددي مستحيل وغير مجد إلى جانب كونه غير مستفيض باعترافه شخصيا(بلخير، 2003، ص158)، وكان تصنيفه كالآتي:

-أفعال دالة على الحكم.

-أفعال الممارسة.

- أفعال الوعد.

- أفعال السلوك.

- أفعال العرض(بلخير، 2003، ص159)، وقد اكدّ أوستن نفسه على أنّ هذه المجموعات متداخلة مع بعضها البعض ويمكن لفعل الحكم أن يكون فعل ممارسة أو العكس، إلى جانب افتقاره إلى أسس واضحة وثابتة وهذا ما جعله محل انتقاد.

وقدّم سورل (Searl) تصنيفا ثانيا لأفعال الكلام، يقوم على ثلاثة أسس منهجية هي الغرض الإنجازي، اتجاه المطابقة وشرط الأخلاق، وجعلها خمسة أصناف:

1-الإخباريات: (Assertives) هدفها تعهد المتكلم بأن شيئا ما هو الحقيقة.

2-الأفعال التوجيهية: (Directives) غرضها الإنجازي توجيه المخاطب إلى فعل شيء معين (الأمر، النصح).

3-الالتزاميات: (Commissives) غرضها الإنجازي التزام المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل (الوعد، الوصية).

4-التعبيريات: (Expressives) غرضها الإنجازي التعبير عن الموقف النفسي (الاعتذار، المواساة) شرط عقد النية والصدق في محتوى الخطاب.

5-التصريحيات (Déclarations) وتتميز هذه الأفعال بأنّ نجاحها يتمثل في مطابقة محتواها العضوي للعالم الخارجي (الواقع)(نحلة، 2002، ص50-51).

ولأفعال الكلام دور بارز في تحقيق التواصل واستمراره بين أفراد الجماعة اللغوية، فاللغة ليست وسيلة للتعبير وتوصيل المعلومات فقط وإنما هي نشاط يؤدي إلى تغيير الواقع ويعترف بنوايا المتكلم(بلخير، 2003، ص193)، فالمتكلم بإنتاجه للأفعال الكلامية يؤثّر في محاوره ويجعله يغيّر معتقداته ويحقق إنجازات ملموسة على أرض الواقع.

ومن الأمثلة التي استقيناها من كتاب الأذكياء هذا الحوار الذي كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) طرفا فيه، فقد ابتاع فرسا من أعرابيّ، ولمّا جاء ليقضيه ثمنها أنكر الصفقة ليبيع الفرس لغيره بسعر أعلى: «...فنادى الأعرابي النبيّ فقال: إن كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه وإلاّ بعته، فقام النبي (صلى اللّه عليه وسلم) فقال: أليس قد ابتعته منك؟ قال: لا. فطفق الناس يلوذون بالنبي (صلى اللّه عليه وسلم) والأعرابي وهما يتراجعان. فطفق الأعرابي يقول: هلمّ شهيدا يشهد أنّني قد بايعتك؟ فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إن النبي لا يقول إلاّ حقا. حتى جاء خزيمة بن ثابت فاستمع لمراجعة النبي ومراجعة الأعرابي، فطفق الأعرابي يقول: هلمّ

شهيدا يشهد أنّي قد بايعتك؟ فقال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبي (صلى اللّه عليه وسلم) على خزيمة، فقال: بم تشهد؟ فقال: بتصديقك يا رسول اللّه. فجعل النبي شهادة خزيمة بشهادة رجلين»(ابن الجوزي، 1988، ص31).

يمثّل هذا الحوار مجموعة من الأفعال الكلامية أُنتجت بغرض إثبات أحقيّة الطرف الأوّل والتأثير في الطرف الثاني وسنحاول فيما يلي تصنيف هذه الأفعال حسب تقسيم سورل:

أ-التوجيهيات:

وتتمثل في الأمر والاستفهام والطلب والاستعطاف وتظهر في مداخلات الرسول (عليه الصلاة والسلام) والأعرابي وهما يتراجعان الكلام:

فقال الأعرابي: "إن كنت مبتاعا الفرس فابتعه وإلا بعته"، وبهذا القول يوهم الأعرابي الجميع بأنّ الرسول الكريم لم يشتر الفرس بعد، وهو متفضّل عليه بتقديمه على بقية الباعة بطلبه هذا.

ويرد الرسول (عليه الصلاة والسلام) باستفهام غرضه الإنكار، فهو ينكر على الأعرابي تنصّله من الصفقة التي تمت بينهما، فقوله "أليس قد ابتعته منك؟" لا يستفسر به عن الأمر ولا يطلب المعلومة بل يتعجب من الأمر وينكره.

إلاّ أنّ الأعرابي يتمادى ويؤكّد فعله بطلب شهادة الشهود يشهد قائلا: "هلمّ شهيدا يشهد أنني قد بايعتك"، وفي هذا تكذيب صريح لرسول اللّه وإنكار تام للبيع الذي تم.

ب-الإخباريات:

وشرطها الإخلاص لأن المتكلم يتعهد فيها بأن شيئا ما هو الحقيقة وتظهر في مداخلات الحضور من المسلمين:

وهي قولهم: "ويلك إن نبيّ اللّه لا يقول إلاّ حقّا" فهم يخبرون بصدق الرسول الكريم وهم مخلصون في ذلك وصادقون لأنّ الجميع يعلم ذلك وإن أنكره الأعرابي.

جـ-الالتزاميات:

ويتمثل فعلها الإنجازي في تعهد المتكلم بالقيام بشيء ما، ويمثلها الفعل الكلامي الذي أنجزه خزيمةوغيّر مسار الحوار والقضية برمّتها إلى صالح رسول اللّه (عليه الصلاة والسلام) وتتمثل في قوله:

"أنا أشهد أنّك قد بايعته" وتعهد أمام الجميع بالقيام بفعل الشهادة.

إلاّ أنّ الرسول لعدله وورعه وقيامه على حدود اللّه وشرعه، لم يفرح بوجود شهيد يثبت حقه، وأقبل على خزيمة يسأله عن موضوع شهادته فأجابه: " بتصديقك" أي أنّ شهد كما طلب الأعرابي لكن ليس على البيعة وإنما على صدق رسول اللّه.

د-التصريحيات:

وغرضها الإنجازي جعل الواقع مطابقا للخطاب وتظهر في الفعل الكلامي الذي أنتجه رسول اللّه عليه الصلاة والسلام) والذي جاء مكافأة لخزيمة وهو جعل شهادته بشهادة رجلين.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا النوع من الأفعال-التصريحيات-لا يمكن أن يتحقق إلا بتوفر شروط معينة وهي تمتّع منجز الفعل الكلامي بالأهلية التي تخول له إصدار مثل هذه الأحكام والتصريح بها، كأن يكون قاضيا أو حاكما، ورسول اللّه له هذه السلطة (الدينية والتشريعية) التي تتحقق معها إنجازية الفعل الكلامي.

ونسوق من الأمثلة الواردة في كتاب الأذكياء حوار عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه والهرمزان لما جيء به أسيرا إلى المدينة المنورة لينظر الخليفة في أمره فلما رآه نائما متوسِّدا رداءه بلا حاجب أو حارس فقال الهرمزان: «هذا الملك الهنيء. فقال عمر: الحمد للّه الذي أذل هذا وشيعته بالإسلام فاستسقى الهرمزان، فقال عمر: لا يجمع عليك القتل والعطش؛ فدعا له بماء، فأمسك بيده، فقال عمر: اشرب لا بأس عليك، إنّي غير قاتلك حتى تشربه؛ فرمى بالإناء من يده، فأمر عمر بقتله، فقال ألم تؤمني؟ قال: وكيف؟ قال: قلت لي: لا بأس عليك، فقال الزُّبير وأنس وأبو سعيد: صدق، فقال عمر: قاتله اللّه أخذ أمنا ولم أشعر»(ابن الجوزي، 1988، ص94).

يمثّل هذا الحوار اللحظات الأخيرة من عمر محكوم عليه بالإعدام، وهو الهرمزان الذي استطاع أن يميّز ملامح شخصية (الملك) الهنيء النائم في المسجد بلا حارس ولا حاجب، وهو القادم من أرض الملوك ولا وجود لمثل هذا الصنيع في عرفهم، فلم يفوّت على نفسه فرصة الاستفادة من هذه الصفات العجيبة -في نظره.

وقام بإنجاز فعل كلامي توجيهي بطلبه الماء للشرب، تحققت إنجازيته في ردّ الخليفة حين قال: لا يُجمع عليك القتل والعطش، ولبّى طلبه ولمّا وصل الماء إلى يده لم يشرب كما يفعل العطشان وإنّما أمسك ينتظر وكأنّه يستدرج الخليفة لشيء ما.

وهنا جاء رد الخليفة بفعل كلامي إلزامي تمثل في فعل القول: "اشرب لا بأس عليك إني غير قاتلك حتى تشربه"، فألزم بذلك نفسه بتأجيل فعل القتل إلى حين الانتهاء من شرب الماء، وحدّد الزمن وعلّق القتل على فعل الشرب بحرف الجر حتّى وهي بمعنى الانتهاء(الغلاييني، 2012، ص494)، فإنهاء حياته لن يكون إلاّ بعد شرب الماء ووعده بذلك، إلاّ أنّ الهرمزان لم يشرب ورمى بالإناء من يده، بعد تأكّده من وعد الخليفة له، في محاولة منه لاستغلال كل معطيات الموقف التواصلي، فإن نجح في تقدير الوضع وصحّت الفكرة التي كوّنها عن شخصية الخليفة وصفاته نجا، وإن فشِل في مسعاه فلن يخسر شيئا فهو أصلا ينتظر تنفيذ حكم الإعدام.

وبنظرة بسيطة للسياق التداولي والاجتماعي للقصة فإن قيامه بفعل مناف لشروط الملاءمة التي يفرضها المقام وهو مجلس الخليفة، كان من الممكن أن يعجّل بقتله، لكن فعله آتى أكله، وانتزع من الخليفة أمانا لم يكن ليعطيه إيّاه بالسّبل

المشروعة وتمكّن من بلوغ هدفه والإبقاء على حياته بالفعل الكلامي الإلزامي الذي انتجه عمر بن الخطاب-رضي اللّه عنه-كونه الخليفة والقاضي الأول في البلاد.

5-الفعل اللغوي غير المباشر:

يعدّ سيرل من الأوائل الذين انتبهوا للفرق الموجود بين دلالة صيغة بعض الأقوال والتأويل الذي يعطى لها، وهي الدلالة الحرفية والمعنى الضمني الذي يفهمه السامع دون أن يتلفظ به المتكلم، إلاّ أنّ تعميق الدراسة في هذه الظاهرة تمّ على يد بول غرايس الذي يعد من مؤسسي التداولية إلى جانب أوستن وسورل، وبصدورمقالته في 1975م تحددت البداية الحقيقية لتناول ظاهرة الفعل اللغوي غير المباشر، حيث سعى إلى بسط الأسس العامة للحوار وتحديد القواعد العامة التي يتعين على المتحاورين الالتزام بها لاعتقاده أن تعدد الفعل اللغوي المباشر لا يمثل حلا لقضية المعنى(إدراوي، 2011، ص94)،وتمثّل الفعل اللغوي غير المباشر في الدلالة غير المباشرة التي أطلق عليها غرايس مصطلح الاستلزام الحواري، وميّز في نظريته بين القوة الانجازية الحرفية وهي المدركة مقاليا والقوة الإنجازيةالمستلزمة وهي المدركة مقاميا(إدراوي، 2011، ص96)،والآلية التي تمكن من الانتقال من الأولى إلى الثانية هي التي تمثل الإشكال الرئيس في نظرية غرايس، حيث بحث في كيفية فهم المخاطَب للمعنى الضّمني المقصود من الكلام، وما هي الآلية التي تمكّنه من ذلك، فاقترح مبدأ عاما يقتضي التعاون بين المشاركين في التفاعل حتى يتمكّن السامع من تأويل الملفوظات والوصول إلى المعنى الذي يقصده المتكلم(موشلار، ريبول، 2010، صص211-212)، وذلك بالقيام باستدلالات غير برهانية لا تستند إلى قوانين اللغة والمنطق وحسب بل تتعدّاها إلى الأبعاد الفكرية والاجتماعية والنفسية التي يمثلها السياق أي البعد التداولي، وقد تفرّع عن هذا المبدأ قوانين تحكم العملية الخطابية حدّدها فيما يلي:

-قاعدة الكم: (اعط مقدارا صحيحا من المعلومات) (Maxim of quantity)

-لتكن إفادتك المخاطب على قدر حاجته، بلا زيادة أو نقصان.

-قاعدة الكيف (اجعل إسهامك بما يكون حقا وصوابا) (Maxim of quality)

-لا تقل ما تعلم كذبه، وما ليست لك عليه بينة.

-قاعدة العلاقة (الملاءمة) (Maxim of revelance)

-ليناسب مقالك مقامك.

-قاعدة الطريقة (Maxim of manner):

-تجنب الغموض واللبس والإطناب وحافظ على ترتيب الكلام (إدراوي، 2011، ص100).

لقد اعتاد الناس في تبادلاتهم الكلامية على التعاون اللاّمشروط مع محاوريهم بهدف الوصول إلى التفاهم بأيسر الطرق، لكن ماذا لو قرّروا عدم التعاون، وهو ما يظهر في هذا الحوار الطريف الذي بين أيدينا، على الرغم من بساطة الموضوع؛ كونه استفسار عن عمر أحدهم، فقد ورد في كتاب الأذكياء أنّ رجلا سأل هشام بن عمرو القرظي قائلا:

«كم تَعُدّ؟ قال: من واحد إلى ألف ألف أو أكثر، قال: لم أرد هذا. قال: فما أردت؟ قال: كم تعدّ من السّنّ؟ قال: اثنتين وثلاثين سِنَّةً، ستة عشر من أعلى وستة عشر من أسفل. قال: لم أرد هذا، قال: فما أردت؟ قال: كم لك من السنين؟ قال: ما لي منها شيء، كلها للّه عز وجل، قال: فما سنك؟ قال: عظم، قال: فابن كم أنت؟ قال: ابن اثنين، أب وأم، قال: فكم أتى عليك؟ قال: لو أتى عليّ شيء لقتلني، قال: فكيف أقول؟ قال: قل: كم مضى من عمرك؟»(ابن الجوزي، 1988، ص127).

في الحالات العادية ينتهي هذا الحوار بإنتاج فعلين كلاميين (كم عمرك/عمري كذا)، لكن لم يكن كذلك، فكلما تدخّل المشارك الأول كانت مداخلة الثاني أبعد ما يكون عن موضوع الحوار، فتحدّث عن خبرته بعلم الرياضيات وعن عدد أسنانه وعن والديه وحتى عن المصائب التي حلّت به، كلّ ذلك والسائل يحاول جاهدا أن يبلّغه مقصده من السؤال دون جدوى، حتى أصبح السؤال عن عمر أحدهم عملية شاقة تستغرق من الوقت والجهد الشيء الكثير، وهذا الجهد هو الذي توفّره قوانين التخاطب التي تفرعت عن مبدأ التعاون الغرايسي:

فقد احترم السائل كل القواعد في إنتاجه لفعل الكلام الذي جاء استفهاما لا يحتمل الصدق أو الكذب، بالإضافة إلى كونه موجزا واضحا ومناسبا.

أما ابن القرظي فقد احترم القواعد الثلاث: الكم والكيف والجهة إذ أجاب بدقة عن كل سؤال وُجِّه إليه وقدم إجابات صحيحة بلغة بسيطة واضحة وموجزة، لكنه انتهك قاعدة الملاءَمة لأنّ إجاباته لم تكن ملائمة للمقام هذا من جهة ومن جهة ثانية الإفادات التي قدّمها بديهية ولا تتطلب استفسارا كعدد الأسنان والوالدين، مما يجعلها غير مناسبة.

ممّا سبق نلاحظ أنّ احترام قواعد التخاطب لا يتم بشكل مثالي إلاّ عندما يكون التعامل باللغة بشكل مباشر وصريح بأفعال كلامية مباشرة، وهو ما أطلق عليه غرايس الاستلزام الحواري النموذجي (المعنى الحرفي)، فلا يحتاج السامع إلى إجراء أيّ استدلالات لتأويل الأفعال الكلامية المنتجة، لكن التعاون يتم باستثمار المعطيات السياقية وتقصّي مقصود المتكلم حتى مع خرق قواعد التخاطب من طرف المتكلم، فاللغوي هشام بن القرظي تنبّه لقصد السائل لكنه أراد أن يُطرح السؤال بلغة سليمة تركيبا ودلالة ومعجما، فغلّب مراده على قصد المتكلم وأجابه على هذا الأساس غير مبال بما بقصده ولم يكن متعاونا في تأويل ملفوظاته، وركّز على سلامة اللغة (القواعد الشكلية)، ونجح ابن القرظي في إثبات أهمية القواعد اللغوية في إنجاح التواصل.

وفي بعض الحوارات يتم خرق قواعد التخاطب بشكل متعمّد، فيقول المتكلم شيئا ويقصد آخر، ومع ذلك يستطيع السامع فهم قصده وتأويل ملفوظه بطريقة سليمة، وهو الاستلزام الحواري أو الفعل اللغوي غير المباشر، ومثال على ذلك الحوار التالي:

«حدّثنا مبارك بن علي، قال: عرض شُريح ناقة لبيعها، فقال له المشتري: يا أبا أميّة كيف لبنها؟ قال: احلب في أي إناء شئت. قال كيف الوطاء؟ قال: افرش ونم. قال: كيف نجاؤها؟ قال: إذا رأيتها في الإبل عرفت مكانها اعل سوطك وسر، قال: وكيف قوتها؟ قال: احمل على الحائط ما شئت. فاشتراها، فلم ير شيئا مما وصف، فرجع إليه، فقال: لم أر فيها شيئا مما وصفتها به، قال ما كذبتك، قال: أقلني، قال: نعم»(ابن الجوزي، 1988، ص63).

من مداخلات الطرفين نلاحظ أن الطرف الثاني وهو صاحب الناقة، قد احترم قاعدتا المناسبة والطريقة فكانت إجاباته مناسبة للمقام وواضحة وموجزة كما أنّه لم يكذب لأنه عبّر بجمل إنشائية لا تحتمل الصدق أو الكذب، أمّا قاعدة الكم فقد خرقها وكانت كلّ إجاباته أكثر من المطلوب وتزيد عن حاجة السامع، الأمر الذي جعله يفهم أكثر مما قيل:

-"احلب في أي إناء شئت":

أ-معنى حرفي (يمكن اختيار أي إناء لوضع الحليب بداخله)

ب-معنى مستلزم مفاده أنّ لبنها كثير.

- "إذا رأيتها عرفت مكانها":

أ-معنى حرفي أي شيء تراه بالتأكيد فأنت تعرف مكانه.

ب-معنى مستلزم مفاده أنها ضخمة وظاهرة على غيرها من الإبل والنوق.

- اعل سوطك وسر":

أ-معنى حرفي ارفع سوطك وسر.

ب-معنى مستلزم مفاده أنّها سريعة.

-"احمل على الحائط ما شئت":

أ-معنى حرفي وضع المتاع على الحائط.

ب-معنى مستلزم مفاده ناقة قوية كالحائط.

وبما حصّل السائل من معنى بعد تأويله أفعال صاحب الناقة الكلامية اشتراها وهو مطمئن البال، حتى وإن كان في ذلك مغالطة، فهي في الأصل خرق متعمّد لقوانين الخطاب، وهي-استلزام حواري-لكن المتكلم يخفي فيه قصده الحقيقي، الذي يبقى التأويل الذي يقوم به المستمع مرهونا، فإن كان متعاونا فلن يقدّم إلاّ ما صحّ من المعلومات، لأن الأصل في المعاملات بين الناس الصدق والإخلاص، وهذه الأمور وأخرى رأى فيها مجموعة من الباحثين قصور مبدأ التعاون-الغرايسي-واقترحوا عدة تعديلات له.

خاتمة:

من خلال هذا البحث الموجز ظهرت لنا أهمية المقاربة التداولية في دراسة المنجز اللغوي في إطار التواصل، وقد توصّلت الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها:

-المتكلم في كتاب الأذكياء لا يستعرض ملكته اللغوية وحصيلته المعجمية وحسب، وإنما يقوم بأفعال اجتماعية تتحدّد بسياقات إنتاجها في المواقف التواصلية.

-تنوعت الأفعال الكلامية في النماذج المختارة من كتاب الأذكياء بين التوجيهيات والتصريحيات والالتزاميات والإخباريات.

-يحدث المتكلم تغييرا واضحا في الواقع المحيط به بإنجازه لأفعال كلامية.

-للسياق دور مهم في إيصال المعنى وتبليغ قصد المتكلم.

-يحقق المتكلم أغراضه ويبلّغ قصده إلى المتلقي بإنجاز أفعال كلامية غير مباشرة، يراعي فيها قواعد عرفية(مبادئ التخاطب لبول غرايس)، بعيدة كل البعد عن صرامة القواعد الشكلية للغة، لكن غيابها يعيق عملية التواصل.

النتائج المتوصل إليها لا تعني نهاية البحث وإنما تفتح آفاقا جديدة للبحث في نظرية الأفعال الكلامية والتداولية بشكل أعم، وربطها بالتراث العربي الذي أثبت حضوره في ميدان الدراسات اللغوية تأصيلا وتنظيرا وتطبيقا.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن خلكان، شمس الدين أحمد ، (1972)، وفيات الأعيان أنباء أبناء الزمان، تح إحسان عباس، ، دط، مج3، لبنان،دار صادر.
2. ابن فارس، أحمد، (1979)، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام محمد هارون، دط، ج2، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر .
3. بول، جورج،(2010)، التداولية، تر قصي العتابي، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون.
4. علوي، حافظ إسماعيلي، (2011)، التداوليات علم استعمال اللغة، إربد، الأردن،عالم الكتب الحديث.
5. بوجادي، خليفة، (2010)، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ، ط2، العلمة، الجزائر، بيت الحكمة للنشر والتوزيع.
6. مونغونو، دومينيك، (2008)، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر محمد يحياتن، ، ط1، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون.
7. عبد الرحمان، طه، (1993)، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط2، الدار البيضاء،المركز الثقافي العربي.
8. ابن الجوزي،عبد الرحمان، (1988)، الأذكياء، ط1، بيروت، دار الجيل.
9. بلخير، عمر، (2003)، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ط1، الجزائر، منشورات الاختلاف.
10. أرمينكو، فرانسواز،(1986)،المقاربة التداولية، تر سعيد علوش، الرباط، المغرب مركز الإنماء القومي.
11. لحمادي، فطومة ، (2008)، تداولية الخطاب المسرحي-مسرحية عصفور الشرق لتوفيق الحكيم انموذجا، ضمن أعمال الملتقى الخامس السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر، بسكرة.
12. بلانشيه، فيليب، (2007)، التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر صابر الحباشة، ط1، سوريا، دار الحوار.
13. ابن منظور ، محمد بن مكرم، (دت)، لسان العرب، تح عبد اللّه على الكبير وآخرون، مج2، مصر، دار المعرفة.
14. نحلة،محمود أحمد،(2002)، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط1، مصر، دار المعرفة الجامعية.
15. صحراوي،مسعود، (2005)، التداولية عند العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث العربي، ط1، لبنان، دار الطليعة.
16. الغلاييني،مصطفى، (2012)، جامع الدروس العربية، تح محمد بن علي جيلاني، ط3، ج3، القاهرة، المكتبة التوفيقية.
17. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، (1989)، المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (إنجليزي فرنسي عربي)، تونس، مطبعة المنظمة.
18. بوقرة،نعمان، (2009)، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ط1، الأردن، عالم الكتب الحديث .
19. بوقرة، نعمان، (2012)، لسانيات الخطاب (مباحث في التأسيس والإجراء)، ط1، لبنان، دار الكتب العلمية.
20. Dubois, Jean, et des autres,(1994), Dictionnaire de linguistique, 1ere Edition, Paris, Larousse Bordas.